٤٦ أبو الحجاج الأقصرى وانتشار الإسلام بطيبة الفرعونية

لم يدخل الإسلام الأمم والممالك بحد السيف على ما يزعم أعداؤه، وإنما دخلها بالحجة والإقناع، الحجة بما أتى به من مبادئ وقيم تسمو بالحياة الإنسانية، والإقناع بأن هذا الدين ما جاء إلا لخير الإنسان ونفعه فى كل ما دعا إليه من تعاليم وتوجيهات، أو فى كل ما نَهَى عنه من شرور وآثام.

ولو أن الإسلام كان على هذه الصورة التى رسمها له أعداؤه لما انتشر، ولما استقر، والأكثر لما استقر فى القلوب ورسخ فى النفوس. وارداد انتشاره قرناً بعد قرن، واتسعت رقعته حتى فى أمم لم تكن فى الحسبان، فالذى يحصى عدد المسلمين فى البلاد الأوربية والأمريكية والأسيوية اليوم يجدها وقد تضاعفت عشرات المرات قبل هذا القرن، وهو ما يؤكد أن هذا الدين لديه من إمكانية الحجة والإقناع بشكل يجعل الآخرين يدخلون فيه أفواجاً برغم ما يُوَجَّه إليه من افتراءات، وما يمر به من محن.

ولعل قدرة هذا الدين على الحجة والإقناع مضافاً إليها مواكبته لكل زمان ومكان، جعلته يسود وينتشر بهذا الشكل السلمى، البعيد عن العنف وإراقة الدماء.

فمن فضائل هذا الدين أنه لا يُكره أحداً على الدخول فيه عنوة واقتداراً، فلا مانع من أن يظل الناس على دينهم، وأن تظل بعض الأماكن حتى فى بلاد الإسلام على دينها بعد ظهور الإسلام بمئات السنين، إلى أن يأتى اليوم الذى يرى فيه أهل هذه الأماكن أن الإسلام دين أولى بأن يُتبع، وذلك بالحجة والإقناع،

لابالقوة والإجبار، فالله عز وجل لم يُكره الناس فى قرآنه الكريم على أن يؤمنوا، وإنما دعاهم إلى اعمال العقل فيما يؤمنوا به، فالله عز وجل لم يقدم ذاته فى ألغاز وأساطير، وإنما جعل معرفتنا به سبحانه من خلال صنعه فى خلقه، وهذا ما يؤكده كتاب الإسلام «القرآن الكريم».

ولهذا وغيره لا نجد غرابة فى أن يظل بعض الناس فى دور الإسلام وبلاده على دينهم. ومتى؟ فى أوج عظمة الإسلام وحضارته فى العصور الوسطى.

وهذا هو إقليم «طيبة» (الأقصر الآن) بالصعيد خير مثال على ماسبق، فكما يسجل المؤرخون أن هذا الإقليم بمصر قد بقى على دينه المسيحى حتى بعد ظهور الإسلام بأكثر من ستة قرون، مع أن مصر دخلت حظيرة الإسلام منذ بدايات القرن الهجرى الأول، على ما رأينا من قبل فى الفصول السابقة. ومع هذا لم يحدث لأهلها أى سوء ممن يحيطون بهم من المسلمين الذين دخلوا فى الإسلام، حتى إذا قيض الله عز وجل من يحبب الإسلام إليهم دخلوه مختارين بدون إذعان.

لقد وفد الرجل الصالح يوسف بن عبد الرحيم بن غزى المعروف بأبى الحجاج الأقصرى (نسبة إلى مدينة الأقصر) من بغداد التى ولد بها إلى هذا الإقليم من صعيد مصر الأعلى، حيث لم تكن وفادته من مسقط رأسه بغداد حاضرة من الخلافة العباسية فى عهد الخليفة العباسى المقتفى بأمر الله بمحض المصادفة، بل كانت له فى هذه الوفادة رسالة وجب عليه أداؤها ـ كما يذكر الباحث محمد عبده الحجاجى فى كتابه «شخصيات صوفية فى صعيد مصر» بعد مراجعة لعدد من الكتب القديمة فى مقدمتها «وفيات الأعيان» لابن خلكان، «الكامل» لابن الأثير و«الطالع السعيد» للأدفوى... أن العارف بالله أبا الحجاج الأقصرى ترك أثراً عظيماً فى الأقصر أو طيبة القديمة سيظل خالداً على مر الزمن، وهو جهده فى نشر الدين الإسلامى بهذا الإقليم، إذ استطاع أن يغير وجه الحياة فى هذه المدينة التى كانت أكبر معقل للكهنوتيه منذ فجر التاريخ بنشره الإسلام بين ربوعها، حيث أسلم على يديه الكثير من الرهبان المسيحيين طوعاً لا كرهاً، وعلى رأسهم الراهبة ترزة بنت القيصر، التى كانت تمثل دعامة قوية من دعائم الدين المسيحى فى صعيد مصر، كما أنه احترم من بقى على دينه المسيحى. وعاش المسلمون والأقباط جنباً

إلى جنب فى أخوة صادقة تفيض بالمحبة والإخاء، شعارهم الدين لله والوطن للجميع - مسلمين ومسيحيين - كل ذلك كان بفضل سماحة هذا الرجل الصالح أبى الحجاج الأقصرى ولين جانبه، وواسع أفقه.

ولا يقل موقفه من هذه المعتقدات التى تفرق المسلمين شيعاً وأحزاباً، ودوره فى القضاء عليها بصعيد مصر، عن موقفه ودوره فى نشر الإسلام فى هذه البقعة من مصر. كان ذلك حين رفض كل الآراء والمعتقدات التى من شأنها المساس بسماحة الإسلام الحقيقية، حين وقف فى وجه الشيعة والآراء الباطنية فى الصعيد. بعد سقوط الدولة الفاطمية، ذلك لأن أبا الحجاج الأقصرى كان سُنياً متشدداً، ترك أهله وعشيرته ووطنه فى بغداد حينما انتشرت هذه الفئة واستكبرت، وأتت بتفسيرات كثيرة ليست لصالح المسلمين. فى هذا الإقليم لم يقف منها موقفاً سلبياً، بل حارب دعاتها ومعتنقيها، ورماهم بالفسوق والعصيان.

ولا تقتصر جهود هذا الشيخ الصالح على هذين الأمرين فحسب، بل نجد له جهوداً متعددة فى دفاعه عن الفضيلة، ومحاربته للبدع والمنكرات، مما كان له كبير الأثر فى ازدهار هذا الإقليم الذى اختاره مستقراً له، حتى خرج بمجتمع الأقصر من حياة الخمور والتخلف إلى السعى المتواصل فى الدنيا من أجل الآخرة، فهو من هؤلاء الصوفية الذين يجمعون بين العبادة الحقة والإصلاح الإجتماعى.

وظل أبو الحجاج الأقصرى على هذا النحو إلى أن كانت وفاته فى عام ٦٤٢ هـ عن عمر يزيد على التسعين عاماً. فيكون يوم وفاته مشهوداً فى الصعيد، حيث تقاطر الناس من كل بلاد الصعيد لتوديعه إلى مثواه الأخير، حيث دفن بضريحه الكائن الآن فوق معبد آمون الشهير بالأقصر.

مات هذا الشيخ الصالح بعد أن حفلت حياته بجلائل الأمور وفى الوقت نفسه عاصر الصراع الدائر فى مصر والشام بين المسلمين والصليبيين، كما أنه لمس بدء تحرك جحافل المغول الذين أخذوا يتخطفون البلاد الإسلامية فى عهد الخليفة العباسي المعتصم بالله، الذى قُتل بعد سقوط بغداد. فكان هذا الشيخ «أبو الحجاج الأقصري يأسى لحال المسلمين وما آلت إليه أمورهم بسبب حرصهم على متاع الدنيا أكثر من الآخرة.

ولأبى الحجاج الكثير من الآثار العلمية، غير أنه لم يتيسر للباحثين العثور

عليها، كما يذكرون فى أبحاثهم، ولكن النذر القليل من هذه الأبحاث يكفى لمعرفة منهجه وأسلوبه فى الدنيا والدين. ومن هذه الآثار العلمية التى أمكن الحصول عليها منظومته فى علم التوحيد، التى ضمَّنها تسعة وتسعين باباً، وهى تقع فى ثلاثمائة وألف بيت من الشعر، دافع فيها عن العقائد الإيمانية دفاعاً مجيداً، حيث استهلها بقوله:

الحمد لله العلى الصمد الأول الآخر لا بأمد

وقد تحدث فيها عن ذات الله عز وجل وصفاته، والدار الآخرة، والبعث، والنشور، والجنة والنار، كما تعرض فيها للإمامة والخلافة وشروطهما، وغيرها من موضوعات الدين والدنيا بشكل يكشف عن سعة أفقه، وغزارة معرفته بالعلوم الكلامية وغير الكلامية.

ومن آثاره العلمية أيضاً كتاباته التى تركها كأقوال مأثورة فى الصوفية، ومنها: «من ذاق طعم الأُنس بالله تعالى نسى إساءاته وإحسانه، ومهما بقى الحس ومدركات الحس فالعقل هنا مخبول، وإذا لم يبق حس ولا محسوس انطلق العقل..».

لكن الذى يبقى خالدا من هذا الرجل الصوفى هو منهجه فى التربية، إذا كان من هؤلاء الصالحين الذين أحسنوا تربية التلاميذ والمريدين وفق منهج خاص، وطريق واضح، فكان يرى أن للمريد أدباً مع شيخه، وأدباً مع زميله، ولهذا يقر مؤرخوه أن له مدرسة واضحة المعالم فى صعيد مصر، اتسعت للكثيرين ممن أرادوا التأدب بأدبه وسلوك نهجه فى التصوف.

فكما يقول الأدفوى فى كتابه «الطالع السعيد» عن هذا الرجل الصالح أبى الحجاج الأقصرى وأثره فى التصوف: إنه «تخرج على يديه سادات وأكابر، نطقت بمناقبهم ألْسِنة الأقلام، وأفواه المحابر، مِمَّن له فضل بارع، وباع فى الكرامات واسع...».

رحم الله شيخنا أبا الحجاج الأقصرى، وجزاه عن جهده عظيم الثواب، فقد كان حقاً وصدقاً رجلاً صالحا فى كل مراحل حياته.

* * *